الرّواية الجزائرية المعاصرة بين الواقعية والأدلجة
رواية "الشّمعة والدّهاليز" للطّاهر وطّار أُنموذجا

سعيد تومي

جامعة البليدة2

مدخل:

الأدب جزء لا يتجزّأ من الحياة الإنسانية عامة، وبشكل خاص الاجتماعية منها، فهو يعكس النّشاط الفكري والمعرفي للمجتمع، وهو بحق المرآة العاكسة لحياته على اختلاف ألوانها وتصوراتها ولا غرابة في ذلك فالأديب ابن مجتمعه، وما جدوى أن تكتب شيئا لا يُقرأ لأنّه ببساطة لا يعني مجتمعك في شيء، فالأديب يكتسب مشروعية الكتابة عن مجتمعه والتعبير عن الصراع الاجتماعي القائم فيه معتمدا – طبعا –على الطريقة الفنية الأدبية، ليُنشئ علاقة وطيدة بين نصّه والمجتمع القارئ له،

ويعتبر النّص السردي أو الرّواية بشكل أدق أكثر النّصوص الرّوائية استحضارا للمظاهر الاجتماعية بمختلف ألوانها وأنواعها وأشكالها، وللأنساق الفكرية والإيديولوجية المختلفة والمتعدّدة، تُقدّم للقارئ في قالب مبني على عناصر فنية تميّز الشكل الروائي السردي عن غيره من الأشكال الأدبية والفنّية الأخرى كالبناء اللّغوي والزماني والمكاني ،،، وكلّ ذلك بهدف خلق متعة جمالية لمتلّقيها.

ولما كانت الرّواية الفضاء الرّحب لتصوير الواقع الكائن والواقع الممكن ضمن السيرورة التاريخية للمجتمع، حظيت بمكانة هامّة ضمن الحركة الأدبية المعاصرة باعتبارها الدّيوان الثاني للمجتمع وللجمالية السّردية الفنية الّتي يتمتّع بها ويُمتّع بها قرّاءه، كان اختيارنا لمدوّنة سردية من أدبنا الجزائري المعاصر، وهي مدوّنة سجّلت الواقع المأساوي الذي عاشته الجزائر قبل عقد من الزمن من الآن أي في تسعينيات القرن الماضي، استطاع صاحبها أن يصوّر بها واقع بلده في قالب درامي سوسيوإيديولوجي، ونقصد بتلك المدونة رواية " الشمعة والدهاليز" للأديب الراحل الروائي الطاهر وطار.

وقبل أن نقف وقفة نقدية عند الرّواية وكيف تمثّلت الواقع المعيش بإرهاصاته الإيديولوجية المختلفة في ظلّ الانفتاح الديمقراطي الذي نهجه النظام الجزائري آنذاك، كان لزاما علينا أن ننبش عن بذور الواقعية في الأدب الجزائري عامّة والمعاصر على وجه الخصوص، لنرى أن واقعية الروائي الطّاهر وطّار كانت امتدادا للخيط الرّفيع الّذي شكّل الفضاء الواسع الذي نهجته الرّواية الجزائرية المعاصرة قبله،

1ـ الواقعية في الأدب: ارتبط مفهوم الواقعية في الأدب بالحركة الأدبية الّتي ظهرت في فرنسا في أوائل القرن التّاسع عشر ومن ثَمّ انتشرت في أوروبا ومنها انتقلت إلى عالمنا العربي، إلاّ أنّ أدباءنا رسموا نهجاً خاصاً بهم استوحوه من الواقع العربي بمشكلاته الاجتماعية وقضاياه السّياسية، وإن كان بعضهم في بداية الأمر قد تأثّر بالواقعيين الغربيين كمحمود تيمور، لكن الواقعية الحقّة في أدبنا العربي الحديث تجلّت عند الأديب طه حسين من

خلال مجموعته القصصية (المعذّبون في الأرض)، "فقد عبّر عن رفضه لمظاهر الحرمان والفقر مطالبا بالعدالة الاجتماعية والحقوق الإنسانية للفرد"[1] وظهرت ثمار الواقعية بعد ذلك في رواية توفيق الحكيم (يوميات نائب في الأرياف) سنة 1937، حيث "قدّم وصفا دقيقا لحياة الفلاّحين في الرّيف المصري مستعرضا مظاهر الجهل والمرض والحرمان والذلّ بين أجيال من الإقطاعيين المستبدّين"[2]، وقد ترجمت هذه الرّواية إلى أغلب لغات العالم، دون ننسى في هذا المقام روايات صاحب جائزة نوبل للآداب، الّذي يعدُّ بحق أب الرّواية العربية الواقعية، يضاف إليه أعمال يوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوي،،، وغيرهم ممّن لا يسع المجال لذكرهم.

ولبُّ القول أنّ الواقعية في الأدب العربي الحديث الرّوائي منه على وجه الخصوص كانت بمثابة المرآة العاكسة للواقع فضحت عيوبه وكشفت عن أسراره وخفاياه، ونقلت معاناه فئة المقهورين والمعذبين، وصوّرت جشع أغنيائه وألقت باللائمة على صنّاع القرار فيه.

2ـ الواقعية في الأدب الجزائري: يجدر بنا المقام هنا أن نؤكّد على نقطة هامّة وهي أنّ الحديث عن الاتجاه الواقعي ومدى تمثله في الرّواية الجزائرية العربية المعاصرة لا يمكن أن يكون بمعزل عن اتّصالها بالرّواية العربية في المشرق بوجه عام وفي أقطار المغرب العربي على وجه الخصوص، وقد أشار إلى هذا الأمر الدّكتور عمر بن قينة بقوله: "فالرّواية الجزائري الحديثة النّشأة غير مفصولة إذن عن حداثة هذه النّشأة في الوطن العربي كلّه، مشرقه ومغربه، سواء في نشأتها الأولى المتردّدة، أو في انطلاقتها الناضجة ... وهي نشأة تختلف ظروفها بطبيعة الحال من قطر عربي إلى آخر"[3] ، وفي نفس السيّاق لا يجب أن نغفل جذورها التاريخية المشتركة "أوّلاً: في صيّغ القص في القرآن الكريم، والسّيرة النبوية، وثانيا: في البذور القصصية الأولى في مقامات الهمذاني والحريري ... ورسالة الغفران للمعرّي والتوابع والزوابع لابن شهيد"[4].

ويمكن اعتبار اندلا ع الثورة الجزائرية نقطة انطلاق واقعية الرّواية الجزائرية الحديث، وهذا ما يذهب إلى الكثير من النقاد على غرار الذكتور عبد الله الركيبي (رحمه الله) الّذي يؤرّخ لظهور الاتجاه الواقعي في الرواية الجزائرية بانطلاق الرصاصة الأولى في كفاح الشعب الجزائري ضدّ المستدمر الفرنسي إذ يقول:" بهذا دخلت قصّتنا العربية مرحلة جديدة متخطّية دروب الوعظ والخطابة والذّاتية المنغلقة على نفسها، وأعني بها مرحلة الواقعية بمفهومها الحديث .. الواقعية التي تعنى بالإنسان أوّلاً وأخيرا بلا طنطنة ولا صراخ ولا انفعال .. الواقعية الّتي لا تنقل نقلاً آلياً فوتوغرافيا، بل تأخذ منه ثمَّ تعلو عنه بالمعالجة الفنيّة بالهمس، بالإيحاء، باللّفتة المعبّرة والحوار الطبيعي الجذّاب"[5].

والحديث عن البداية الفنّية النّاضجة للرّواية الواقعية المعاصرة في الجزائر تنطلق مع العمل الرّوائي المميّز (ريح الجنوب) للرّوائي الرّاحل عبد الحميد بن هدوقة سنة 1970، وهو رأي يذهب إليه الدّكتور عمر بن قينة بقوله:"وهكذا يمكن اعتبار (ريح الجنوب) فعلاً النّشأة الجادة النّاضجة لرواية واقعية فنية جزائرية حدثاً وشخصيات وأسلوباً"[6]، ثمّ بدأت الرّواية الجزائرية تتطوّر إيجابا بعد هذا العمل برواية أخرى لروائي آخر وهو الطاهر وطار الذي رأى عمله الروائي (اللاّز) النّور سنة 1970، وهو عمل يجمع ملامح من أشكال سلوكية في واقع الثورة الجزائرية وواقع ما بعد الثورة أي الاستقلال وما أفرزه الوضع من آفات مختلفة سياسية واجتماعية وثقافية .. بمستوى متطوّر

في المعالجة وفي الصّياغة وصفا وتصويرا بالسّرد والحوار المباشر وحديث النّفس باستدراج ذكريات ومواقف ومشاعر وآمال.

فتلك الرّوايتان تمثلان الأرضية والتّأسيس لرواية جزائرية واقعية باللّغة العربية، ولا نغفل هنا لغة الرّوايتين لأنّ الكتابة الرّوائية الجزائرية باللّغة الفرنسية كانت قد قطعت شوطا كبيرا على يد عديد الكتّاب كمولود فرعون ومولود معمري وغيرهما... فظهور الروايتين السّابق ذكرهما ألهب الأقلام الشابة التالية التي حققت تراكما كبيرا من النّصوص الرّوائية خاصة في العقدين الأخيرين من القرن الماضي.

وبالعودة للحديث عن الرّوائي الكبير الطاّهر وطّار نجد الكثير من رواياته الواقعية قد اقترنت بالصوفية وأخرى مضمّخة بالسوريالية، غير أنّ رواياته التسعينية كان لونها سياسيا متأثرا في ذلك بالوضع السياسي غير المستقر الذي كانت تعيشه البلاد كروايته التي نحن بصدد تناولها (الشمعة والدهاليز)، فالواقع السياسي للجزائر أملى على الكاتب الغوص فيه بكلّ تداعياته وإرهاصاته الخطيرة في بعض الأحايين .. فهي لربّما شجاعة نادرة انبرت لدى الكاتب في حين قرّر غيره الفرار إلى ما وراء البحر، في حين قابل ـ عمي الطاهر كما يحلو للكثيرين مناداته ـ الموت بصدر عارٍ في وطنه.

3ـ أدلجة الرواية الجزائرية المعاصرة:

الإيديولوجيا كمفهوم قائم بذاته هي ذلك النّسق الكلّي للأفكار والمعتقدات والاتجاهات العامّة الكامنة في أنماط سلوكية معيّنة، وهي تساعد على تفسير الأسس الأخلاقية للفعل الأخلاقي، وتعمل على توجيهه، وللنّسق المقدرة على تبرير السلوك الشخصي وإضفاء المشروعية على النّظام القائم والدّفاع عنه، فضلاً على أنّ الإيديولوجيا أصبحت نسقاً قابلا للتغيير استجابة للتغييرات الرّاهنة والمتوقّعة سواءً كانت على المستوى المحلّي أو العالمي. وقد عرّفها الباحث محمد كامل الخطيب في كتابه الرّواية والواقع بقوله:"هي نسقٌ من الأفكار والعادات والأخلاق والمفهومات والقوانين والفنون .. إلخ، تتشكّل في مرحلة تاريخية محدّدة أو على قاعدة نمط إنتاج، أو نمط حياة معيّن ..."[7].

بناءً على هذا المفهوم للإيديولوجية يتّضح أنّ الفنّ الرّوائي لا محالة ينسج خيوطه ومادته من الإيديولوجية القائمة باعتبار الكاتب جزء لا يتجزّأ من عالم الأفكار القائم، فالكتابة في حقيقتها "ليست إلاّ امتدادا للمجتمع الّذي تكتب عنه وتكتب فيه معاً "[8].

ويؤكّد باختين حضور الإيديولوجية في الفنّ الرّوائي بقوله:" إنّ الدّليل اللّغوي محمّل بشحنة إيديولوجية لا تعكس الصراع الاجتماعي السّائد، وإنّما تجسّده وتدخل في سياقه"[9]. وإذا سلّمنا بقول باختين ومن ثمّ اعتبار الإيديولوجيا مكوّن من مكوّنات الرّواية، فإنّنا نستطيع القول أنّ "كُتّاب الرّواية غالباً ما يقومون بعرض هذه الإيديولوجيات والمواجهة بينها من أجل أن يقولوا شيئاً آخر ربّما يكون مخالفا لمجموع تلك الإيديولوجيات نفسها"[10].

ممّا سبق يمكننا القول أنّ الإيديولوجيا "تدخل إلى عالم الرّواية التخييلي كمكوّن يكون أداة في يد الكاتب ليعبّر في النّهاية بواسطته عن إيديولوجية خاصة"[11].

والقارئ لروايات الأدباء الجزائريين في العقود الثلاثة من القرن الماضي يجد معظمها ـ إن لم نقل كلّها ـ تنسج مادتها من الإيديولوجية السّائدة آنذاك سواءً في السبعينيات حيث الإشتراكية الماركسية، والّتي ظهرت جلية في رواية (ريح الجنوب) لابن هدوقة، أو التخلي عن هذا النّظام والبحث عن نظام بديل غير شمولي في نهاية الثمانينات وبداية التسعينيات، وهو واقع إيديولوجي تشكل بوضوح في رواية الشمعة والدّهاليز للطاهر وطار، حيث أن القارئ لهذا العمل يقف على موقف إيديولوجي يبرز بشكل حاد باعتبار أنّ الرّجل يحاول ربط روايته بالواقع وجعلها في خدمة هذا الواقع أو على الأقل معبراً عنه، واقع عبّر عنه صاحب الرواية بوضوح في تقديم روايته بقوله:"إذا كان هناك تاريخ حقيقي يمكن أن أصرّح به فهو هذا الذي سيكتشفه القارئ الكريم، وقائع الشمعة والدهاليز تجري قبل انتخابات 92 التي خلقت ظروفا أخرى لا تعني الرّواية في هدفها الذي هو التعرّف على أسباب الأزمة وليس على وقائعها، وإن كنت وظّفت بعضها هاإنّني لا أستطيع لحاق ما يجري في الجزائر، لا لشيء آخر إلاّ جزء لا يتجزّأ من هذا التاريخ، أؤثّر فيه وأتأثر به، وأبذل كلّ عمري محاولاً فهمه"[12].

إنّه اعتراف صريح من الأديب نفسه أنّ الظروف السياسية الصعبة الّتي أصبحت تمرّ بها الجزائر آنذاك هي الّتي ولّدت لديه الرّغبة في التعبير والكتابة عن ذلك الواقع الإيديولوجي المؤلم حيث الانفتاح السياسي والتعددية الحزبية وما صاحب ذلك من أحداث. من خلال ما سبق لنا أن نتساءل ونحن نقرأ الرّواية، أين يمكن تلمّس الواقعية المؤدلجة في رواية الشمعة والدهاليز؟

إجابة على التساؤل، يمكن لنا اختصار الأمر في ثلاثة عناصر وهي: المضمون والشخصية والزمن. وقبل الخوض في العنصر الأول نذكر أنّ الرّواية تجري وقائعها قبل الانتخابات البرلمانية سنة 1992 التي يشير فيها الكاتب إلى الشرارة التي أشعلت الأحداث الدموية المتمثلة في إلغاء السلطة لنتائجها، ممّا أدى إلى التشيّث بالنّظام الأحادي والذي مثّلته السلطة، ممّا أثار حساسيات وأفكار إيديولوجية تمثّلت في تيارات معارضة للسلطة أهمّها التيار الإسلامي الفائز في الانتخابات والذي مثل أخطر قوّة تهدّد هيكل النّظام بعد أن فشلت السلطة الحاكمة آنذاك والتي ورثت الثورة أو ما يطلق عليه الشرعية الثورية في تحقيق مشروع المجتمع، تمثّل الصراع في الرّواية في شخصية عمّار بن ياسر الذي يمثل جيل الشباب الحامل لأفكار جديدة والّذي يقف في مواجهة والده (جيل الثورة).

أ/- إيديولوجية المضمون في الرواية: عندما كتب الطاّهر وطّار روايته (الشمعة والدهاليز)، وهي الرواية ما قبل الأخيرة في مشوار الكتابة الروائية، كتبها وهو تحت ضغط أسئلة مؤجلة جامعة بين التاريخ والواقع، أسئلة أفرزها واقع جديد، وضع حرج ومأساوي اختلط فيه الحابل بالنابل، والكاتب لا يجد حرجا في الاعتراف بأنّه وضع "يحاول فهمه، فالرواية تجسّد الصراع المأساوي الغامض، صراع الجزائري في أعماقه وفي محيطه، في تاريخه وفي راهنه، اجتهد الرّوائي على هندسة تفاصيلها وجزئياتها حول الأمكنة والشخصيات .. بما يقتضيه جوهر الواقع وعمقه مستعينا بالتاريخ لإضاءة تمزّقات الرّاهن الجزائري"[13]، يتضح ذلك جليا من خلال إشاراته في ثنايا روايته إلى

اللحظات الكبرى والحرجة التي مرّت بها الجزائر. وكمثال على ذلك: استنطاق التاريخ (ص20)، نقد الذّات المتعالية (ص11 وص28)، إذانة السياسات الحاكمة (ص86/78/75)، أزمة الهوية (ص171/143).

ويتجلى بوضوح المضمون الإيديولوجي في مهاجمة الشاعر في النص واتّهامه بالشيوعية وكأن "هناك حنينا عارما إلى النّظام الشيوعي بالإكثار من ذكر لينين، ماركس، الاشتراكية، فالنص يجعل الشاعر شيوعيا في هواه، وكانّه يعترف ضمنيا بضعف إيمانه ممّا جعل أحد الملثمين يتّهمه قائلا: جرجرتك الخيزران إلى المساجد، فرحت ـ وأنت عالم الاجتماع اللاّئكي ـ تصلّي العصر في الصباح، وتصلي الفجر في المغرب (ص192)"[14]، لكن النص على رأي الدكتور عبد المالك مرتاض في هذا الباب "كان شديد الاحتيال، لطيف الاحتياط، بحيث كنّا قد ألفيناه قبل ذلك يدين شخصية الشاعر على لسان ملثّم آخر بذنوب أخرى لا صلة لها بالإيمان ولا بالدّين ولا بالصلاة، وإنّما بمحاربته اللّغة الفرنسية فيما يزعم النّص على الأقل، وذلك حين يقرّر على لسان احد الملثمين: إنّما أن يقبل (الشاعر الأستاذ الجامعي) مناقشة رسائل الطلبة بغير اللّغة الفرنسية، أن يكون الأوّل الّذي فتح باب هذا الدهليز، فهذا ما لا يمكن أبداً تجاوزه، ينسف ـ يا سيادة الرّئيس ـ ما بنيناه منذ 1832 في هذا البلد المسكين (ص102) "[15].

وتتمظهر إيديولوجية المضمون أيضا في محاولة الكاتب ملاعبة الجماعات الدّينية فيأتي ذلك على لسان الشاعر قبل مصرعه "الإسلام هو الشمعة الوحيدة القادرة على إنارة كلّ الدهاليز والسّراديب الإنسانية في ظلمتها الأخيرة وشمعتها الوحيدة في انتظار هلول الهلال من جديد هي الإسلام"[16].

ولأنّ الطاهر وطّار فنان كبير يعرف خبايا الفرد الجزائري فإنّه يعمد إلى البوح ببعض أسرار الانشطار الرّوحي في وجان الفرد الجزائري، وذلك عبر الكشف عمّا يحدث في مخيلة الشّاعر وهو يرقب العلاقة المتوترة بين تكوينه الثقافي الفرنسي ومشهد الحياة العربية من حوله، ولنا أن نتأمّل هذا المقطع من الرواية "كان يتفادى التحدّث عن المرأة إلاّ بما توحي به اللّغة الفرنسية الّتي يكتب بها والتي يحسّ أنّها لا تستطيع أن تتنازل لملامح أمّه أو خالته أو حتّى العارم، لأنّ عليه في الآن الواحد أن يستحضر وأن يستبعد المخزون المترسّب من لامارتين وراسين ورامبو وفيكتور هوجو، يستحضره لأنه قرأه وأحبّه ورسب في ذاكرته وشكّل وجدانا تجريبيا في أعماقه، تظلّ أزميرالدا، العبارات التي سكنتها أزميرالدا، وهو يتخيّل العارم فلا ينطبق الوصف على الموصوف ولا الرّسم على المرسوم، فيعدل عن ذلك ويتجنّب الحديث عنها ليفرق في الحديث عن ذاته، عن رؤاه واحلامه"[17]. ومهما كانت حدّة هذا الانشطار، فإنّ شدّه إلى أصوله وإلى تاريخه العربي المجيد قد طغى عليه وحرّك في وجدانه حضوره وضرورة تغييب ماهو ليس منه.

ب/- إيديولوجية الشخصية في الرّواية: مشكلة أيّ روائي تكمن في معاناته الدّائمة وهو يكتب في أن يتخلّص من ذاتيته وإيديولوجيته وثقافته وعاطفته ولغته في تصوير شخصياته ولهذا تراه دائماً يريد لتلك الشخصيات أن تصنع نفسها وتكوّن ذاتها من كلّ الجوانب السّالفة الذّكر، فإلى أيّ مدى تأدلجت شخصيات الشمعة الدهاليز خصوصا الرئيسية منها؟

الواقع السّياسي الذي كانت تعيشه الجزائر بعد أحداث جوان 1988، والتطلّع إلى التغيير والبحث عن البديل للأحادية الحزبية الحاكمة قبل الأحداث صنع الشخصية البطلة في النّص الّتي لم تكن على صلة بما يحدث ولكنّها فيما بعد خالجتها فكرة تغيير النّظام والتمكين للدّولة الإسلامية، حيث يترك الكاتب للشخصية حرية التعبير عن نفسها، وهي تُحاور بطل الرّواية في قضايا سياسية وفكرية، تتمحور حول الدّولة الإسلامية الّتي تنوي الحركة إقامتها، يبرز خلال هذا الحوار فكر التطرّف، فقد تمّ تقديم هذه الشخصية البطلة بلغة واصفة محايدة نابعة من الشخصية الموصوفة ذاتها حاول الكاتب أن يبدو حياديا اتّجاهها متغلّبا على إيديولوجيته وكمثال على ذلك حين يدخل البطل في حوار مع عمّار بن ياسر يبدأ الأخير في كشف رؤيته السياسية والفكرية ونظرته للدّولة يقول في أحد المقاطع:" هذه المرّة ننجزها بإذن الله سبحانه وتعالى، ثورة إسلامية حقيقية، ثورة ربّانية تخالف كلّ ما أنجزته المعتقدات الوضعية. ننجزها إن شاء الله شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية"[18]. ويقول في موضع آخر:" سنشكّل الحكومة ما في ذلك شكٌّ"[19]، بالإضافة إلى حديثه عن إقامة الخلافة الإسلامية في المغرب الأوسط، المقصود به الجزائر.

وفي مواضع أخرى متعدّدة نجد الشخصية البطلة تتحدّث عن العنف وعن الثورة الّتي ستكون ضدّ سلطة قائمة مسبقا ليس لها النّية في التخلّي عن الحكم بأيّة طريقة، ففي ردّه عن سؤال أحد أتباعه يكشف عمّار بن ياسر عن مرجعيات دولته يكون السؤال:"وهل ستكون كحكومات النّظم الأخرى، وزراء وكتّاب دولة وما إلى ذلك"[20]، ويكون الجواب:" لا يأخذكم الغرور، فلسنا أوّل من أقام نظاما إسلاميا، هناك إيران، وهناك السّودان وأخيرا أفغانستان لسنا وحدنا في الكون"[21].

الملاحظ ممّا سبق أنّ شخصيات الرواية التي حملت موضوع الرواية الإيديولوجي على عاتقها بقيت على صلة مباشرة بالأسئلة التي أفرزها الواقع المحلّي وحتّى الدّولي، وهي الأسئلة الّتي ظلّت تعصف بالواقع الجزائري، "ما الّذي حدث؟ من المسؤول عن زرع الرّعب والموت؟ من يقتل من؟"[22].وهذا ما نجده في نهاية الرّواية، النّهاية المأساوية الّتي باغتت البطل حيث سبعة ملثمين وفي ساعة من اللّيل يقتحمون عليه منزله ثمّ يشرعون في محاكمته، المحاكمة كانت محاكمات أو هكذا أراد الكاتب أن تكون كلّ ملثّم يمثّل جهة أو تيارًا أو موقفًا، فالملثّم الأوّل حكم عليه بالإعدام برصاصة في الصدر وطعنة في البطن والتّهمة معاداته للنّظام الجمهوري الدّيمقراطي، وكذلك الأمر بالنّسبة للملثمين الآخرين، والتّهم تتعدّد وتتنوّع والمصير واحد، وهو الموت.

ج/- إيديولوجية الزّمن في الرّواية: كان عنصر الزمن مضطربا في رواية الشمعة والدّهاليز، وهذا الاضطراب عبّر عنه الطّاهر وطار في تقديمه للرواية بقوله:" الزمن ليس زمنا تاريخيا متسلسلاً أو ممنطقا أو محسوباً، إنّه زمن أهل الكهف، زمن التذكّر والتنقل من هذه اللّحظة إلى تلكم، من هذه الواقعة إلى تلك، ولقد تعمّدت حينا واضطررت حينا آخر إلى طيّ الزمن وجعله وقتًا حلميًا يقع في مناطق مظلمة ومناطق مضاءة، مناطق واعية ومناطق موهومة، الإحساس فيها يغلب طولها او قصرها"[23].

فقد حاولت الرّواية التأريخ لمأزق السّلطة زمن تفكّك الإيديولوجيا الاشراكية الماركسية والإيديولوجية الدّينية "فالتيّار الماركسي يستعيد مشروعيته إلى العقل والعلم، أمّا التيّار الدّيني فيستلهم مشروعيته من المطلب

الإلهي بينما يستمدّ النّظام مشروعيته من الثورة وتاريخها"[24]. فالزّمن الماضي في الرواية حاضر من خلال الإيديولوجيا الاشتراكية في فضاء النص وأسباب انهيارها رغم صلابتها لافتقادها إلى العقل، جعلت الجزائر تتأرجح بين اشتراكية لا تنفع، ورأسمالية بالية لا تصلح. أمّا النظام الإسلامي الذي نجح أيام الخلافة الإسلامية قد لا ينجح في الجزائر "أقول إن شاء الله وأنا أتصوّر أنّك تطمح إلى اقتحام دهليز خطير، والتعرية على سراديب لا منتهية"[25]، فالملاحظ أن خلفية النّص قامت على استنزاف المرجعية التاريخية من خلال رؤية مقارنة بين تاريخ الجزائر في مرحلة الثورة وتاريخها المعاصر عبر الاستقلال، وكأنّ الزمن الماضي عبر تقنية التذكّر يعبّر عن تناقضات الحاضر. فالصراع بين والد عمّار إسماعيل وابنه زعيم الحركة الدّينية الذي يرى في أبيه امتدادا للمستعمر، يؤمن بالديمقراطية التي تكون في صالحه، وفي هذا يبدو الطاهر وطّار منحازا للجيل الجديد ومستاء من الجيل السابق، الذي استغلّ نفوذه وماضيه النّضالي ليتحوّل إلى جيلٍ مستبدّ. هكذا " ينبني الزمن في الرواية على المقارنة بين فكرتين أساسيتين، قدّم النص إحداهما في مظهر تمثيلي للماضي، في حين صاغ الثانية في صورة الحاضر المتوثّب نحو المستقبل، حيث أصبح المجتمع يعرف لقاء زمنين مختلفين، هما الماضي والحاضر، وإذا كان هذا اللّقاء ضروريا وطبيعيا في مسار كلّ تجمّع بشري وضمانًا للتواصل الإنساني بخلفياته الاقتصادية والثقافية فإنّه يطرح بصيغة تصارعية صدامية، لأنّ شريحة من المجتمع تنظر إلى الماضي بوصفه المستقبل المنشود والقيمة المثلى"[26].

فالتداخل الحاصل بين الزمنين في الرواية من خلال تقنية الاستذكار والاستشراف جاء ليؤكّد حنين الكاتب وتعلّقه بإيديولوجية مضت وأخرى مرحّب بها بهدف خدمة مشروع الرّواية الفكري والنّظري.

والخلاصة أنّنا حاولنا من خلال مداخلتنا هذه أن نضيء دهليزا من دهاليز الرّواية بشمعة احترقت قبل أن تضيء جميع الدهاليز، تلك الشمعة هي في الحقيقة الجزائر بماضيها وحاضرها وبصراع أجيالها وبتنوّع تركيبتها السوسيولوجية والعرقية وهي تسقط في كلّ مرة تحاول النّهوض.

الإحالات:

1- محمد مندور، الأدب ومذاهبه، ط2، دار المعارف للطباعة والنّشر، القاهرة، مصر، د/ت، ص96
2- المرجع نفسه، ص97.
3- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث: تاريخًا وانواعًا وقضايا وأعلامًا، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، ابن عكنون، الجزائر، 2009، ص 195.
4- المرجع نفسه، ص 195.
5- عبد الله الركيبي، تطوّر النّثر الجزائري، ط1، الدّار العربية للكتاب، تونس، د/ت، ص 186.
6- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ص201.
7- محمّد كامل الخطيب، الرّواية والواقع، د/ط، الدار اللبنانية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981، ص 105.
8- عبد المالك مرتاض، في نظرية النّقد، ط1، دار هومة، الجزائر، 2002، ص131.
9- حميد لحميداني، النّقد الروائي والإيديولوجيا، ط1، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب، 1990، ص26.
10 – المرجع نفسه، ص 40.

11- المرجع نفسه، ص 33.

12 ـ الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، ط1، منشورات التبيين، الجاحظـية، الجزائر، 1995، ص 04.

13- عبد المالك مرتاض، قراءة نقدية في رواية الشمعة والدهاليز، مقال، مجلة التبيين، منشورات التبيين، الجاحظية، الجزائر، 2005، ص02.

14- المرجع نفسه، ص02.

15- المرجع نفسه، ص 02.

16- الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، ص193.

17- المصدر نفسه، ص 195.

18- المصدر نفسه، ص 195.

19- المصدر نفسه، ص197.

20- المصدر نفسه، ص197.

21- المصدر نفسه، ص197.

22- المصدر نفسه، ص198.

23- المصدر نفسه، ص48.

24- عبد القادر البار، إيديولوجية الزمن في رواية الشمعة والدهاليز للطاهر وطار، مقال، مجلة قراءات، ورقلة،2011، ص03.

25- الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، ص67.

26- إلهام علول، جماليات النّظام الزمني في الرواية الجديدة سيّدة المقام أنموذجا، مقال، مجلة منتدى الأستاذ، عدد3، قسنطينة، 2007، ص 129.